

دراسات قرآنية

من أسرار التعريض في القرآن الكريم

د. عبود حميودة

جامعة 20 أوت 1955 سكيكدة

تمهيد:

مما لا شك فيه أن القرآن الكريم - الذي هو كتاب الله تعالى - فيه هداية للناس «ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ»⁽¹⁾، حين استعمل الصورة البيانية من كناية وتعريض ونحو ذلك من الصور البيانية، لم يقصد هذه الصور لذاتها، بل لغايات وأهداف تتناسب مع غايته الكبرى، وهي هداية الناس إلى كل خير. فالصورة (منهج فوق المنطق لبيان حقائق الأشياء)⁽²⁾.

يقول مصطفى صادق الرافعي: «ولسنا نقول إن القرآن جاء بالاستعارة لأنها استعارة أو بالمجاز لأنه مجاز أو الكناية لأنها كناية أو ما يطرد مع هذه الأسماء والمصطلحات إنما أريد به وضع معجزة في تناسق ألفاظه وارتباط معانيه على وجه السياستين من البيان والمنطق»⁽³⁾.

وإذا كانت للصورة البيانية في القرآن أهداف كثيرة فمنها: أن يدلّك على إعجاز القرآن البياني فالأسلوب الحقيقي هو الأبلغ والأتم والأصلح في مكانه والأسلوب المجازي كذلك، وذلك في القرآن كلّ (فمن أظهر الفروق بين أنواع

¹ سورة البقرة: 02.

² د. مصطفى ناصف: الصورة الأدبية، دار الأندلس، بيروت، لبنان، ط3، 1983، ص 08.

³ مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، المكتبة العصرية صيدا، بيروت، لبنان، 1426 هـ، 2005 م،

البلاغة في القرآن، وبين هذه الأنواع من كلام البلغاء، أن نظم القرآن يقتضي كل ما فيه منها اقتضاء طبيعياً بحيث يبنى هو عليها لأنها في أصل تركيبه، ولا تبنى هي عليه، فليست فيها استعارة ولا مجاز ولا كناية ولا شيء من مثل هذا يصح في الجواز أو فيما يسهل الإمكان أن يصلح غيره في موضعه إذا تبدلته منه، فضلاً عن أن يفى به وفضلاً عن أن يرى عليه، ولو أدرت اللغة كلها على هذا الموضوع⁽¹⁾.

وإذا كان القرآن يستخدم صور البيان بشكل معجز، فإنه ينبغي وراء ذلك الإعجاز، تنبيهها للعقول حتى تأخذ معان، وتأثيراً في النفوس حتى تترك شراً أو تفعل خيراً. يقول د. صلاح الدين عبد التواب: وحتى الآيات التي تناولت أمر العقيدة، وتولت عرضها، إذا نحن نظرنا إليها، وجدناها تخاطب العقل والقلب معاً، فلا هي بالألفاظ والعبارات الرتيبة التي يضيق بها سامعها أو قارئها، ولا هي بالمعاني المجردة الغامضة، التي تثير النبس والإبهام وإنما هي الصور الأدبية الرائعة التي جمعت في إضارها رونق اللفظ، ورشيق المعنى، وجمال الاتساق حتى كانت تلك الصور الحية النابضة، التي تملأها الخيال، فلا يكاد ينتهي عنها إلا وقد انطبعت في النفس، وأثرت في الحس وأقنعت العقل وأمتعت الوجدان⁽²⁾.

ولذلك فالدراسة البيانية للقرآن الكريم، لا تقف عند حدود استخراج صور البيان من تشبيه واستعارة وكناية ونحو ذلك وبيان أنواعها، بل يجب البحث في غاياتها وأسرارها، فقد استخدمت على نحو يمكن معه اكتشاف معنى، أو استنباط حكم في قضايا مختلفة اعتقادية وأخلاقية ونفسية وغير ذلك. يقول الأستاذ ناصر حامد أبو زيد: إن عملية التفسير تنصب على النصوص اللغوية، وتقوم على تحليل المعطيات اللغوية للنص، ولكنها تهدف إلى الكشف عن مستويات المعنى الباطني...

لمرجع نفسه: ص 174.

د. صلاح الدين عبد التواب: الصورة الأدبية في القرآن الكريم، مكتبة لبنان، ناشرون، ط 1، ص 02.

وتصبح مهمة المفسر هي النفاذ إلى عالم النص وحل مستويات المعنى الكامن فيه،
الظاهر والباطن، الخرفي والمجازي، المباشر وغير المباشر⁽¹⁾.

ومن الضرورة بمكان أنه ينبغي على مفسر القرآن لغويا وبيانيا، أن لا
يهدف إلى إظهار الإعجاز البلاغي من حيث المسائل البلاغية، والبحث عن
جماليات الشكل، بل يكون هذا المدخل إلى البحث في المعاني التي تضمنتها الحروف
والكلمات والصور البيانية، فلنعني (المعاني والبيان مزيد اختصاص بعلم التفسير
لأنهما وسيلة لإظهار خصائص البلاغة القرآنية، وما تشتمل عليه الآيات من
تفاصيل المعاني وإظهار وجه الإعجاز)⁽²⁾.

وقد بين ابن خلدون أن استنباط أحكام الشريعة من القرآن مرتبط بجملة
من العلوم منها (علم البيان)، فهو يربط بين الدراسة البيانية وبين استنباط الأحكام،
يقول: أركان علوم اللسان العربي أربعة: اللغة والنحو والبيان والأدب. ومعرفتها
ضرورية على أهل الشريعة، إذ مأخذ الأحكام الشرعية كلها من الكتاب والسنة⁽³⁾.

إن من أهداف القرآن الترويب في الدار الآخرة، والتزهيد في الحياة الدنيا،
والحياة الدنيا قد زينت حتى أن أكثر النفوس لا تقوى على ترك التعلق بها والنظر إلى
الآخرة، فكان من أساليب القرآن أن استخدم الأسلوب البياني علّه يلقي من بعض
النفوس قبولا. يقول د. عبد الفتاح لاشين: دعا القرآن إلى الإيمان بالبعث وباليقين
بالدار الآخرة، لكن تلك الدعوة لقيت صدودا من الكافرين، وعنادا من المشركين،
فكان لا بد أن يتضمن القرآن من أساليب البيان والتصوير ما يزهدهم في الدنيا

¹ نصر حامد أبو زيد: إشكاليات القراءة وآليات التأويل، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط7، 2005م، ص46.

² الشيخ خالد عبد الرحمن العلك: أصول التفسير وقواعده، دار التفاسير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط4، 1424هـ/2003م، ص43.

³ ابن خلدون: المقدمة، دار القلم، بيروت، لبنان، ص545.

ويرغبهم في الآخرة، ويحتوي من صور التمثيل ما يصور قصر الحياة الدنيا ويسموها بالحياة الآخرة ويكشف لهم عن حقيقتها ويحسم فناء هذا العالم بالجمال والآمال⁽¹⁾. وجاء في كتاب (من روائع القرآن): ثم إن التصوير القرآني يتدرج في مظاهر متعددة بوسائل مختلفة وكثيرا ما تجرد هذه المظاهر كلها مجتمعة في نص واحد، وقد تجرد بعضها متفرقا في نصوص متعددة، فأول مظهر للتصوير، هو إخراج مدلول النقط من دائرة المعنى المجرد إلى الصورة المحسوسة والتخييلة⁽²⁾.

المظهر الثاني: تحويل الصور من شكل صامت إلى متحرك حي.

المظهر الثالث: تضخيم المنظر وتخصيمه حينما يكون الجحيم والمشهد يقتضيان ذلك، والوسيلة القريبة إلى تحقيق هذه المظاهر (لا تعدو أن تكون استعارة، أو مجازا مرسلا، أو تشبيها وتمثيلا، وهذه الوسائل التي وضع عليها علم البيان، إنما هي قواعد استخلصت واستنبطت من التصوير الذي انطوى عليه أسلوب القرآن الكريم فالقرآن هو أساس هذه القواعد وليس العكس كما قد يتوهم⁽³⁾. وهذا التصوير الرائع للمعاني من خلال صور البيان هو الذي يترك أثرا فكريا أو نفسيا. وبمناسبة الحديث عن أهداف وأبعاد الصورة البيانية في القرآن على وجه العموم، فلا بأس أن أبرز بعض أسرار التعريض، ذلك أن أصول البيان أربعة (أصلان ذاتيان، وهما المجاز والكنائية، وواحد وسيلة وهو التشبيه. وواحد جزء من أصل وهو الاستعارة⁽⁴⁾).

د، عبد الفتاح لاشين: البيان في ضوء أساليب القرآن، دار المعارف، القاهرة، ط2، 1985، ص52.

2، محمد سعيد رمضان طوطي: من روائع القرآن الكريم، دار الفارابي للمعارف، دمشق، سوريا، 1427هـ / 2007م، ص199

3 المرجع نفسه: ص199.

4، عبد الفتاح لاشين: البيان في ضوء أساليب القرآن، ص52.

حقيقة التعريض وأثره:

أ- معنى التعريض:

التعريض (هو المعنى الحاصل عند اللفظ به، فالتعريض حاصل بغير اللفظ وهو السياق والقرائن)⁽¹⁾. يعرفه د. بكري شيخ أمين: التعريض هو أن يطلق الكلام ويشار به إلى معنى آخر يفهم من السياق⁽²⁾.

والتعريض من الكناية لأن الكناية تتفاوت إلى تعريض وتلويح ورمز وإيماء وإشارة، فإن كانت (عرضية فالمناسب أن تسمى تعريضاً، فإن كان بينها وبين المكنى عنه مسافة متباعدة لكثرة الوسائط كما في "كثير الرماد" فالمناسب أن تسمى تلويحاً، لأن التلويح هو أن نشير إلى غيرك عن بعد، فإن كان فيها نوع خفاء، فالمناسب أن تسمى رمزاً لأن الرمز هو أن تشير إلى قريب منك على سبيل الخفية، وإلا فالمناسب أن تسمى إيماء وإشارة)⁽³⁾.

ب- الفرق بين الكناية والتعريض:

- الكناية واقعة في الجاز ومعدودة منه، بخلاف التعريض فلا يعد منه، لأن التعريض مفهوم من جهة السياق، فلا تعلق له باللفظ، لا من جهة حقيقته ولا من جهة مجازه.

- التعريض أخفى من الكناية، لأن دلالة الكناية مقلولة عليها من جهة اللفظ، بخلاف التعريض فإن دلالاته من جهة القرينة والإشارة، ولا شك أنه كل ما كان اللفظ يدل عليه فهو أوضح.

¹ المرجع نفسه: ص 272.

² د. بكري شيخ أمين: البلاغة العربية (علم البيان) في ثوبها الجديد، دار العلم للملايين، ط 10، 2006م، ج 2، ص 153.

³ د. بكري شيخ أمين: البلاغة العربية في ثوبها الجديد، ج 2، ص 152.

- الكناية تقع في اللفظ المفرد والألفاظ المركبة بخلاف التعريض فهو لا موقع له في اللفظ المفرد⁽¹⁾.

ج- أثر التعريض:

التعريض له أثر بليغ في النفوس لأنه يعين صاحبه على إخفاء ما يريد، من تاب أو نقد أو سؤال أو شكاية حتى لا يفهم مراده إلا من يقصده بالتعريض، لما علم من أن التعريض إنما يفهم من أحوال خارجة عن اللفظ- إلا من اللفظ- وهذه الأحوال قد تكون معلومة للمقصود بالكلام دون بقية الحاضرين⁽²⁾. قال الثعالبي: العرب تستعمل التعريض في كلامها فتبلغ إرادتها بوجه اللطف وأحسن من الكشف والتصريح ويعيبون الرجل إذا كان يكاشف في كبر وجهه، وقد جعل الله في خطبة النساء حائزاً فقال: «وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنُتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِيمَ اللَّهِ أَنَّكُمْ سَتَذَكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُؤَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْرَمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ» (البقرة 235). ولم يجر التصريح⁽³⁾.

¹ الإمام الخطيب القرظوني: الإيضاح في علوم البلاغة، دار الكتاب اللبناني، 2007م/1424هـ، ص 466.

² عبد الفتاح لاشين: البيان في ضوء أساليب القرآن، ص 278.

³ المرجع نفسه: ص 281.

من أسرار التعريض في القرآن الكريم (تطبيقات):

1- قال الله تعالى: « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنَّ كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهْلٍ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَن اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ »⁽¹⁾.

لم يترك الإسلام جانباً من جوانب الحياة إلا وبين للمسلم ما يجب له وما يجب عليه ووضع له الضوابط التي ينبغي على المسلم أن ينضبط بها، أولاً: أن يكون مسلماً بحق يأتمر بأمر خالقه. وثانياً: ليتحقق له النجاح في الدنيا والفلاح في الآخرة. ومن الجوانب المهمة في حياة المسلم أكله وشربه، ولقد أحل للمسلم أن يأكل من الطيبات، ويترك الخبائث، ولذلك فالحلال والحرام في الإسلام مرتبط أساساً بمصلحة الإنسان المادية، ثم بعد ذلك مرتبطة بالابتلاء للإنسان لتمييز من يطيع الله تعالى ومن يتردد ويعصي.

وعندما تحدث الله تعالى عن الطيبات جاء بلفظ العموم «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنَّ كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ». هكذا «مِن طَيِّبَاتٍ» وفيها معنى الكثرة، فالطيبات كثيرة كل منها ما تشاء، واحتر منها ما تريد. ولما تحدث عن الحرام جاء بأداة القصر والتوكيد «رُ»، ليفيد أن الحرام في الإسلام قليل. واستخدام أسلوب القصر والحصر «رُ» فيه تعريض بالمشركين فقوله تعالى: «إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهْلٍ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَن اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا

¹ سورة البقرة: 172/173.

إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ»: (استئناف بياني ذلك أن الإذن يأكل الطيبات يثير سؤال من يسأل ما هي الطيبات. فجاء هذا الاستئناف مبيّنا المحرمات وهي أضرار الطيبات، لتعرف الطيبات بطريق المضادة المستفادة من صيغة الحصر، وإنما سلك طريق بيان ضد الطيبات للاختصار، فإن المحرمات قليلة، ولأن في هذا الحصر تعريض للمشركين الذين حرموا على أنفسهم كثيرا من الطيبات وأحلوا الميتة والدم، ولما كان القصر هنا حقيقيا لأن المخاطب به هو المؤمنون وهم لا يعتقدون خلاف ما يشرع لهم، لم يكن في هذا القصر قلب اعتقاد أحد وإنما حصل الرد به على المشركين بطريقة التعريض⁽¹⁾)

فمن أسرار التعريض في هذه الآية بيان أن الحرام في دين الله تعالى "الإسلام" قليل، بينما المباح والحلال كثير... وما مثل الحرام في الإسلام بالنسبة لما أحل الله لعباده، إلا كمثل الشجرة وسط حنة مليئة بما طاب ولذت.

« وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ »⁽²⁾

والحقيقة هي أن ما حرم الله تعالى على عباده، إنما هو من قبيل الخبيث الضار، الميتة والدم والخنزير و(الميتة تأبأها النفس السليمة وكذلك الدم، فضلا على ما أثبتته الطب - بعد فترة طويلة من تحريم القرآن والتوراة قبله بإذن الله - من تجمع الميكروبات والمواد الضارة في الميتة والدم ولا بدري إن كان الطب الحديث قد استقصى ما فيها من الأذى أو إن هناك أسباب أخرى للتحريم لم يكشف عنها بعد للناس... والخنزير بذاته منفر للطبع النظيف القويم... ومع هذا فقد حرمه الله منذ

¹ ابن عاشور: التحرير والتنوير، ج2، ص 155.

² سورة البقرة: 35.

ذلك الأمد الطويل ليكشف علم الناس منذ قليل أن في لحمه ودمه وأمعائه دودة شديدة الخطورة الدودة الشريطية وبويضاتها المتكيسة⁽¹⁾.

و المؤمن العارف بربه يخضع لحكم الله تعالى في كل ما أمر وما نهي، سواء عرف علة التحريم والتحليل أم لا، وهذا لا يمنع المسلم من البحث عن أضرار ما حرم الله تعالى، ليزداد إيمانا ويستمر ثباتا. ليكون إيمانه، «نُورٌ عَلَى نُورٍ»⁽²⁾، نور المعرفة من الوحي الإلهي، ونور المعرفة من التجارب العلمية الموصلة للحقائق.

2- قال الله تعالى: «الم ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ»⁽³⁾.

قوله تعالى: «الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ» بيان لأول مواصفات المتقين الذين اهتمدوا بالقران الكريم، وهي صفة الإيمان بالغيب. والإيمان بالغيب له معنيان في الآية: المعنى الأول: أي يؤمنون بالله تعالى واليوم الآخر والملائكة وغيرها من أركان الإيمان التي غابت عن حس الإنسان، ولكن صدق بما المؤمن لوجود أدلة على ذلك، وعاما بعقله وأدركها بعلمه. والمعنى الثاني: يؤمنون (يظهر الغيب ولا ينافقون تعريض بالمنافقين ومدح للمؤمنين)⁽⁴⁾. فالمنافقون إذا «وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ»⁽⁵⁾.

¹ سيد قطب: في ظلال القرآن، دار العلم للطباعة والنشر، جدة، السعودية، ط12، 1406هـ/ 1986 م، ص150.

² سورة النور: 35

³ سورة البقرة: 3/2.

⁴ الإمام محمود بن أبي الحسن النيسابوري: إيجاز البيان عن معاني القرآن، ت، د، ضيف بن حسن الفاسمي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1995م، ص65.

⁵ سورة البقرة: 14.

وإذا التقوا باليهود والكفار، أكدوا لهم أنهم معهم. وليسوا مع المؤمنين، فلهم وجهان،
وجه مع المؤمنين ووجه مع الكافرين، وهذا نفاق.

والقرآن الكريم وهو يرقي الفرد المسلم ثم المجتمع المسلم، يبين للمؤمن
مواصفات المؤمنين الصادقين، ويدعوهم للاتصاف بها، ويبين لهم علامات المنافقين،
ويحذرهم من الاتصاف بها. وفي هذه الآية «الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ

الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ» توجيه للمؤمن أن يكون في سببه كما في
عنه، فهو صادق صريح، ظاهره كباطنه، ما يقوله هنا يقوله هناك، وما يقوله مع هذا
يقوله مع ذلك، وهذه الصفة تفرق وتميز بين المؤمن الصادق والمؤمن الكاذب، أو بين
المؤمن بحق وبين مدعي الإيمان وهو المنافق. فمن أبعاد التعريض في قوله تعالى:

«الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ»

بيان وتوجيه للمؤمن أن يكون صادقا في كل أحواله وفي كل مكان وزمان لأنه يؤمن
برب عليم بصير، ويؤمن برب يجازي على ما ظهر وعلى ما خفي. وبهذا الصدق
الباطني والظاهري، يصلح المسلم أن يكون خليفة الله تعالى في أرضه، ويكون أهلا
ليستتير به الآخرون ويصلح أوضاع العالم، لأنه لا يكذب أبدا، وما يقوله علنا هو ما
يسرد، فهو لا ينافق، لأنه لا يخشى إلا الله تعالى، ولا يرجو إلا ثوابه.

3- قال الله تعالى: «وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ

الرَّاكِعِينَ» (1).

أنزل الله تعالى القرآن الكريم لهداية الإنسان وتربيته فكريا ونفسيا وسلوكيا،
والمؤمن الصادق هو من آمن بقلبه وعمل بجوارحه، ولئن كان للإيمان بالله تعالى أهمية
كبيرة، فإنه لا معنى لهذا الإيمان ما لم يقترنه صاحبه بأعمال. فقوله تعالى «وَأَقِيمُوا

الصَّلَاةَ وَأَتُوا الزَّكَاةَ» فيه (أمر بأعظم القواعد الإسلامية بعد الإيمان والنطق بكلمة الإسلام وفيه تعريض بحسن الظن بإحابتهم وامتنانهم للأوامر السالفة وأهم كملت لهم الأمور المطلوبة وفي هذا الأمر تعريض للمنافقين ذلك أن الإيمان عقد قلبي لا يدل عليه إلا النطق، والنطق اللساني أمر سهل قد يقتحمه من لم يعتقد إذا لم يكن ذا غلو في دينه فلا يتحرج أن ينطق بكلام يخالف الدين إذا كان غير معتقد مدلوله، كما قال تعالى: **«وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا»**، فلذلك أمروا بالصلاة والزكاة لأن الأولى عمل يدل على تعظيم الخالق والسجود إليه وخلع الآخرة، ومثل هذا الفعل لا يفعله المشرك لأنه يغيظ آهته بالفعل ويقول الله أكبر، ولا يفعله الكفاي لأنه يخالف عبادته. ولأن الزكاة إنفاق المال وهو عزيز على النفس فلا يبذله المرء في غير ما ينفعه إلا عن اعتقاد أُعْرُوِي⁽¹⁾. جاء في (الكشاف): **«وَأَرْكَعُوا مَعَ الرَّاَكِعِينَ»** الركوع والخضوع والانقياد لما يلزمهم في دين الله⁽²⁾.

ويستنتج مما سبق ذكره أنّ الإيمان إن لم يقترن بعمل وطاعة لله تعالى في كل أمر، فلا قيمة لهذا الإيمان.

إنّ في قوله تعالى: **«وَأَقِمْوا الصَّلَاةَ وَأَتُوا الزَّكَاةَ وَأَرْكَعُوا مَعَ الرَّاَكِعِينَ»** تعريض بمن نطق لسانه بالشهادتين وادّعى الإيمان، ولكنه لم يضحّ بماله في سبيل ربه، ولم يتعب نفسه بأداء الواجبات، وفي هذا تصحيح لتصور المسلم حول قضية الإيمان، فالإيمان ليس بمجرد قول أو اعتقاد فحسب، بل هو خضوع لله تعالى. ولئن كان الخطاب موجّه للمنافقين زمن نزول الوحي، فإنه يشمل كل إنسان اتّصف بهذا حيث آمن بلسانه واعتقد بعقله ولكنه لم يخضع لأحكام الله تعالى. فما

¹ ابن عاشور: التحرير و التتوير، الدار التونسية للنشر، تونس، ج(123)، 1984 م، ص 472.

² الإمام الرضاشري: الكشاف، ت: محمد مرسي عامر، دار المصحف، القاهرة، ط3، 1398/ 1977م، ج(41)،

معنى تعطيل الشريعة الإسلامية عن التطبيق في معظم البلدان العربية سياسيا واقتصاديا وفي الحدود؟! وما معنى وجود انحرافات و سلوكيات تخالف ما أمر الله تعالى من: غش و رشوة وغير ذلك؟!

إن قادة المسلمين اليوم والمصلحون عليهم واجب تربية الناشئة على الإيمان الصحيح، إيمان الاعتقاد وإيمان العمل بما يحقق توحيد الله تعالى فكرا وسلوكا.

4- قال تعالى: «لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ» (1)

في الآية توجيه للمؤمنين إلى حسن الظن بالمؤمنين، كل المؤمنين ناهيك أن يكونوا من بيت النبوة أهل الطهر والعفاف، والتعبير في الآية فيه (تعريض بأن ظن السوء الذي وقع هو من خصال النفاق التي سرت لبعض المؤمنين عن غرور وقلة بصارة فكفى بذلك تشيعا لهم وهذا توبيخ على عدم إعمالهم النظر في تكذيب قول ينادي حاله ببهتانه وعلى سكوتهم عليه وعدم إنكاره) (2). فالإفك الذي هو (أخبت أنواع الكذب والأباطيل المختلفة) (3). واضح زيفه، ذلك أنه من أقاويل المنافقين، وتجاه أظهر البيوت، بيت النبوة، وفي التعبير انتقال من الخطاب إلى الغيبة: «لَوْلَا إِذْ

سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ» فلم؟

عدل عن الخطاب إلى الغيبة (ليبالغ في التوبيخ بطريقة الالتفاف وليصرح بلفظ الإيمان دلالة على أن الاشتراك فيه مقتضى أن لا يصدق مؤمن على أخيه ولا مؤمنة على أختها قول عائش) (4).

¹ سورة النور: 12.

² ابن عاشور: التحرير والتنوير، ج 18، ص 175.

³ محمد إسماعيل إبراهيم: معجم ألفاظ الأعلام القرآنية، مجمع اللغة العربية، الإدارة العامة للمجمعات وأحياء التراث، مصر، 1410 هـ / 1990 م، ج 2، ص 40.

⁴ الزحشري: الكشاف، ج 3، ص 53.

فواجب المسلم أن يحسن الظن بالمؤمنين، لأن حسن الظن بهم حق من حقوقهم، وإنما يسوء ظن المنافقين، الذين يطنون الكفر والحسد والغل. ومن أسرار التعريض هنا:

- سوء الظن بالمؤمنين من مواصفات المنافقين، ومن ثمرات النفاق.

- وجوب دفاع المؤمن عن أخيه المؤمن إذا تعرض لظلم، فحسن الظن بالمؤمن مدعاة للدفاع عنه.

في قوله تعالى: «لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ» معنى يبلغ وتوجيه رائع، إنه لم يقل «بعضهم خيرا» وإنما «بأنفسهم خيرا» وللتصود أن المجتمع المسلم يعيش أفرادا كحسد واحد، وأن كل واحد يحب لأخيه ما يحب لنفسه، فإذا كان المؤمن يكره أن يساء الظن به فكذلك إخوانه المؤمنون، وإذا كان وهو بريء لا يشك في براءته فكذلك لا يشك في براءة المؤمنين من حوله إذا اتهمهم منافقون.

5- قال تعالى: «تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ»⁽¹⁾.

مع أن أسلوب الآية أسلوب صريح في بيان أن للإنسان ما كسب، بمعنى أن الجنة أو الثواب عموما يكون لكل شخص على ما قدم من عمل، ولا يتأب بناء على ما قدم غيره من آباء أو غيرهم، فإن في الآية تعريضا بأهل الكتاب وخاصة اليهود. هذه الآية (عقب الآيات المتقدمة من قوله تعالى: «وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ»). لأن تلك الآيات تضمنت الشاء

⁽¹⁾ سورة البقرة: 134.

على إبراهيم وبنيه والتوبة بشأنهم و التعريض عن لم يقتف آثارهم من ذريتهم وكان ذلك قد يتحل منه المغرورون عذرا لأنفسهم فيقولون نحن وإن قصرنا فإن لنا من فضل أبائنا مسلكا لنجاتنا، فذكرت هذه الآية لإفادة أنّ الجزاء بالأعمال لا بالاتكال. والخطاب موجه إلى اليهود أي لا ينفعكم صلاح آبائكم إن كنتم غير متبعين طريقتهم. فقوله: «لَهَا مَا كَسَبَتْ» تهديد لقوله «وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ». إذ هو المقصود من الكلام⁽¹⁾.

فمن أراد ثواب الآخرة فليعمل، فعمل الغير ثواب لهم، فإن (أحدا لا ينفعه كسب غيره متقدما كان أو متأخرا فكما أن أولئك لا ينفعهم إلا ما اكتسبوا فكذلك أنتم لا ينفعكم إلا ما اكتسبتم وذلك أنهم افتخروا بأبائهم)⁽²⁾. ولكن كان التعريض موجه لليهود، فإن العبرة تشمل كل إنسان عوّل على ما عمل غيره ولم يعوّل على عمله، والمعنى أنّ المسلمين في زماننا كثيرا ما يفتخرون بما قدم الأجداد والآباء من فتوحات، لكن لا ترى لهم بطولات ولا نجاحات كبرى.

نعم إن ذكر الآباء والأجداد والافتخار ببطولاتهم يكون جيدا إذا كان فيه تحفيز وتشجيع لفعل ما فعلوا وأحسن. إن من أسرار التعريض في قوله تعالى: «لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ» بيان أنّ الأعمال التي يقدمها الإنسان هي التي ترفع قدره وتبلغه الفلاح عند الله تعالى، لا الاتكال على أعمال الآخرين.

6- قال الله تعالى: «لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ

¹ ابن عاشور: التحرير والتنوير، ج 1، ص 835.

² الرغشري: الكشاف، ج 1، ص 95.

وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالصَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ» (1)

هؤلاء هم اليهود، ما إن يجدوا فرصة للنيل من المسلمين إلا فعلوا ذلك، فحين أمر الله تعالى المؤمنين بالتوجه إلى البيت الحرام في الصلاة، بدل التوجه إلى بيت المقدس، ظنّ اليهود أنّها فرصة للنيل من عقيدة المسلمين؛ حيث أشاعوا أنّ تغيير القبلة معناه، القبلة الأولى فيها خطأ فإن كانت القبلة الأولى صحيحة فالإتجاه نحو المسجد الحرام فيه خطأ، وهكذا أرادوا تشكيك المسلمين في دينهم فيبين الله تعالى للمؤمنين أنّ مسألة تركية النفوس، وقضية البر، لا تتعلق بالإتجاه نحو المسجد الحرام أو المسجد الأقصى وقد استعمل أسلوب التعريض باليهود. فقولته: «لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ» فيه (إقبال على خطاب المؤمنين بمناسبة ذكر أهل الكتاب وحسدهم المؤمنين على اتباع الإسلام مراد منه تلقين المسلمين الحجة على أهل الكتاب في تحويلهم على المسلمين بإبطال القبلة التي كانوا يصلون إليها ففي ذلك تعريض بأهل الكتاب فأهل الكتاب رأوا أن المسلمين كانوا على شيء من البر باستقبالهم قبلتهم فلما تخلوا عنها لمزوهم بأنهم أضعوا أمرا من أمور البر، يقول مروا عن هذا وأعرضوا عن تحويل الواهنيين وهب أن قبلة الصلاة تغيرت أو كانت الصلاة بلا قبلة أصلا فليس له أثر في تركية النفوس واتصافها بالبر، فذكر المشرق

والمغرب انتصار على أشهر الجهات أو هو للإشارة إلى قبلة اليهود وقبلة النصارى لإبضال تحويل الثغريين على المسلمين حين استقبالوا الكعبة⁽¹⁾.

فالبرّ عند الله تعالى هو إيمان بالله تعالى فيه صدق وحب، وهو أعمال صالحة من صلاة و إنفاق وجهاد في سبيل الله... نعم إن التوجه إلى القبلة في الصلاة كما أمر الله له شأن، لأنه من أمر الله تعالى ولكنه إذا قيس بالطاعات الأخرى فلا قيمة له، فأهل الكتاب بلا إيمان صادق صحيح.. بلا صلاة ولا زكاة ولا جهاد في سبيل الله، فما قيمة توجههم إلى قبلة ما؟!

إن من أسرار التعريض بأهل الكتاب في قول تعالى: «لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى

حُبِّهِ» بيان أن التدين الصحيح يكون بالطاعات والعبادات لا بالأشكال فالصلاة مثلا ليس هي مجرد استقبال القبلة ولكن هي خشوع وخضوع. يقول سيد قطب: إنه ليس المقصد من تحويل القبلة ولا من شعائر العبادة على الإطلاق أن يولي الناس وجوههم قبل المشرق والمغرب.. نحو بيت المقدس أو نحو المسجد الحرام.. وليست غاية البر- وهو خير جملة- هي تلك الشعائر الظاهرة. في حد ذاتها مجردة عما يصاحبها في القلب من المشاعر وفي الحياة من السلوك لا تحقق البر ولا تنشئ الخير.. إنما البر تصور وشعور وأعمال السلوك. تصور ينشئ أثره في ضمير الفرد والجماعة، ولا يعني عن هذه الحقيقة العميقة تولية الوجوه قبل المشرق والمغرب... سواء في التوجه إلى القبلة هذه أم تلك، أو في التسليم من الصلاة يمينا وشمالا، أو في سائر الحركات الظاهرة التي يزاؤها الناس في الشعائر⁽²⁾.

¹ ابن عاشور: التحرير والتنوير، ج2، ص128.

² سيد قطب: في ظلال القرآن، م1، ص153.

ومن هذا التعريض يتعلم المسلم ان الذي يرفع قدر الإنسان عند ربه إنما الأعمال والسلوكات ذات الأثر الطيب الذي يثقل الفرد والمجتمع. ما قيمة أن يرتاد المسلم المساجد ويتوجه إلى القبلة ثلاثين أو أربعين سنة أو يزيد، ومع ذلك فهو غافل القلب عن ذكر عظمه الله تعالى، بعيد عن التواضع والحدود، بل هو بخيل مؤثر للدنيا، كثير الجزع قليل الصبر ، جبان لا ينصر الحق ولو بكلمة!؟

يستخدم القرآن الكريم الصور البيانية و التي منها التعريض على نحو يمكن معه
التشديد على معنى أو استنباط حكم في قضايا مختلفة اعتقادية، أخلاقية ونفسية وغير

- والأمثلة الواردة في هذا المقال (من أسرار التعريض في القرآن
الكريم) توضح ذلك، ومن المعاني المستخلصة: - دائرة الحلال أوسع
الجزء على الأعمال لا بالاتكال- التدين الصحيح سلوكات لا شكليات.
- سوء الظن بالمؤمنين من مواصفات المنافقين، ومن ثمرات النفاق. - وجوب دفاع
المؤمن عن أخيه المؤمن إذا تعرض لظلم فحسن الظن بالمؤمن مدعاة للدفاع
عنه. - الإيمان إن لم يقترن بعمل وطاعة لله تعالى في كل أمر، فلا قيمة لهذا
الإيمان..